فكاهات

رواية

الصندوق السرّي (١)

بينما كانت مدينة اكس في منتصف احدى ليالي شهر ابريل ساكنةً ساكتةً وقد وشّحها الليل بثوبهِ الرهيب وارسل اليها البدر اشعتهُ الفضيّة وسرى النسيم في انحآئها يُسِرُّ الى آذان الطبيعة استغراق جميع سكان تلك المدينة الزاهرة في سبات النوم العميق اذ فُتح باب احد القصور العظيمة الواقعة في احد اطراف المدينة وخرجت منهُ فتاةٌ هيفآء بل ظبيةٌ لمياء في نحو السابعة عشرة من عمرها وتقدمت متوغلةً في حديقةٍ غنآء كانت تحيط بالقصر من جهاتهِ الاربع وسارت تختلس الخُطى وهي تلفت نحو القصر من آنٍ الى آخر جيداً يفضح جيد الظبي وترسل نظرها الى نوافذهِ لعلها ترى عيناً كانت تخافها وتخشاها فينتضح الامر ويسوء المآل . ولما تأكد لديها ان عين الرقيب غافلةٌ عنها حثّت السير الى ان لاح لها شبحٌ واقف في ظلال احدى الاشجار فجمجمت بعض الكلمات وسقط من عينيها دمعتان بل حبّتا لؤلؤٍ انحدرتا بتمهلٍ على تينك الوجنتين الحارّتين ولما وصلت اليهِ القت بنفسها بين يديهِ فضمها الى صدرهِ ولم يرجعا الى رشدهما الا بعد ان مرّ

(١) معربة عن الانكليزية بقلم ميشيل افندي مرشاق

عليهما زهآء نصف ساعة فرفعت رأسها عن كتفهِ وقالت لهُ بصوتٍ تمازجهُ رعشة الحزن اتعلم يا ادمون كم احبك وكم اقاسي من اجل هذا الحب. ألا تراني قد تركت فراشي في مثل هذه الساعة من الليل وعرّضت نفسي لغضب والدي القاسي واسرعت لاقف بين يديك وارى ما لديك مما ذكرتهُ لي في كتابك اليوم فقل لي يا حبيبي اتحبني بقدر ما احبك . فتنفس ادمون الصعدآء عند هذا السؤال ومسح عينيهِ مما ترقرق فيهما من الدموع ثم اخذ يدها ووضعها على قلبهِ وقال الا تشعرين يا مرغريت بضربات هذا القلب الذي اشعر انهُ يكاد يتمزق لبعدكِ الا تسمعينها تنطق بالفاظٍ فصيحة قائلةً انني احبكِ واعبدكِ . قالت الا تزال مصمماً على السفر الى باريز لاستكمال درس الحقوق . قال نعم وقد اتيتُ لاتزود منكِ النظرة الاخيرة قالت وكيف لي ان اطلع على اخبارك وعين والدي لا تفارقني وهو يشكّ في كل شيء . قال تكتبين اليَّ سرًّا وانا اكتب اليكِ على يد صديقي لويس فترسلين اليهِ حاضنتكِ كل ثلاثة ايام فترجع اليكِ بكتابٍ مني . قالت حسن ولكن كيف يكون مسلكي مع ذلك الشرس فيليب ابن عمي الذي صرح لي والدي المرار العديدة انهُ سيزوجني بهِ رغماً عني طمعاً في غناهُ وواسع ثروتهِ . قال هذا موكولٌ الى قلبكِ وحكمتكِ فافعلي كما يوحي اليكِ فؤادكِ واذكري دائماً ان ورآءكِ غريباً لا يتخذ بعدكِ حبيباً

وفيما هما على آخر هذا الكلام اذ طرق سمعهما خفق اقدامٍ قادمة من جهة القصر فاستطير لبهما جزعاً ثم قالت الفتاة هذا ولا شك والدي تفقدني في غرفتي فلم يجدني وهو يبحث عني فاذهب يا حبيبي ولا تنسني

واذكر كل ما دار بيننا الآن . فاختطف الشاب من يدها قبلةً حارّة وانثنى على عقبيهِ وهو يشير نحو السمآء كانهُ يطلب اليها ان تمدّ اليهما يد المعونة والقدرة. ثم التفتت مرغريت واذا بابيها وهو في ثياب النوم قد وقف امامها وهو يتلذع غضباً ثم مدّ يدهُ وامسك بذراعها وهزّها بعنفٍ وقال بخشونة مرغريت مرغريت حذارِ من ان يكون لخروجكِ الى هذا المكان خيانةٌ ما . فادركت الفتاة خطورة الموقف الذي كانت فيهِ لكنها تجلدت وقالت انني لا افقه يا والدي ماذا تعني بكلامك هذا . قال اعني ان خروج فتاةٍ مثلكِ في مثل هذه الساعة من قصرها امرٌ عجيب وفعلٌ مريب . قالت اما انا فلا اراهُ كما يتراءى لك فانهُ اعتراني ارقٌ شديد من ابتداء الليل فخرجت الى هذه الحديقة تنفيساً لكربي وجلاءً لصدأ قلبي . قال لكني لا اعهد فيكِ مثل هذه الجرأة ومع ذلك فانني اعيد على مسمعكِ مرةً اخرى انهُ اذا ظهر لي من وراء هذه الزيارة خيانةٌ ما او بعبارةٍ صريحة انكِ اتيتِ ملبيةً دعوة ذلك الشاب الوقح ادمون فاعلمي ان انتقامي سيكون شديداً . ثم ساقها امامهُ نحو القصر فسارت ورأسها مطرقٌ الى الارض وسار وراءها مرغياً مزبداً الى ان بلغ كلٌّ منهما غرفتهُ

وقضت مرغريت غابر تلك الليلة الى صباحها وهي لم تنم لشدة ما اخذها من الوجد لفراق حبيبها وما اثر عليها من مداهمة والدها لها وكان اشدّ شيءٍ عليها ان ترى انها مغلوبة على امر نفسها لا تستطيع ان تختار الزوج الذي يميل اليه فؤادها وتعلم انها تعيش سعيدةً معهُ فكانت تتقلب بين هذه الافكار وهي على احرّ من النار . ولما اصبحت تلقاها والدها

بوجهٍ عبوس ثم كان بعد ذلك لا يقابلها الا مقطّباً ولا يكاد يكلمها كلمة رضى حتى ضاق صدرها من تلك الحال وذاقت من مرارة العيش ما احبت معهُ قرب الاجل

ومضى بعد ذلك على ادمون ومرغريت ثمانية اشهر لم تنقطع في خلالها اخبار كلٍّ منهما عن حبيبهِ وكانت تكتب اليهِ وتشكو معاملة ابيها واصرارهُ على تزويجها من فيليب ابن عمها ولو بالرغم عنها وممانعتها في ذلك فكان يجيبها بما يقوّي في قلبها عواطف حبهِ ورفض ذلك الشاب الممقوت من فؤادها

وكان فيليب هذا شاباً فظّ الطباع كثير العجرفة الا انهُ كان ذا جاهٍ عريض وثروةٍ طائلة قد خلّفها لهُ والداهُ وكان ينفقها في معاقرة الخمرة وتعاطي الميسر وما اشبه ذلك . وكان يحبّ مرغريت حباً يقرب من العبادة فيتزلف الى والدها ويظهر لديهِ بمظهر الرقة والادب ثم يعطف عليهِ بذكر ما لديهِ من اتساع الثروة فيطير لب عمهِ فرحاً ويكثر اليهِ من الالتفات والتبجيل امام ابنتهِ وهي لا تزداد الا نفوراً حتى الجأتهُ الحالة الى استعمال القسوة معها فقطع املها من ادمون وكان قد شعر بما بينهما من روابط الحب وحتم عليها ان تضع فيليب نصب عينيها ولا ترجو ان يكون سواهُ بعلاً لها ثم عيّن منتصف الشهر التالي وهو التاسع من غياب ادمون موعداً لزفاف مرغريت الى فيليب

فأُسقط في يدي مرغريت وحارت في امرها لكنها علّلت نفسها بانهُ في ذلك الوقت يكون حبيبها قد اتم دروسهُ وعاد الى الوطن الا انها عادت فقطنت ان رجوعهُ لا يجديها نفعاً فعقدت النية على الفرار من بيت ابيها

وكتبت الى حبيبها ان يترك باريز ويوافيها في يومٍ مسمًّى الى مدينةٍ عينتها لهُ . ولما كانت الليلة السابقة لليلة الزفاف جمعت ما وصلت اليهِ يدها من الامتعة وفي ساعةٍ من الزمن كان القطار الحديدي منطلقاً بها كالسهم الى ان بلغ المدينة التي تعينت للاجتماع وهناك وجدت حبيبها في انتظارها فانطلقا الى احد الفنادق وقصت عليهِ ما كان من امرها ولم يمضِ على ذلك بضعة ايام حتى عُقد لهُ عليها وامست زوجتهُ الشرعية وهناك غيَّرا اسميهما واخذ ادمون يتعاطى حرفة المحاماة وعزما على ان يعيشا عيشةً بسيطة

اما ما كان من امر والدها وابن عمها فانهما لما تحقق لهما ما فعلت اخذ منهما الغضب والانفة كل مأخذ فباح والدها لابن اخيهِ بحبها لادمون وقال لهُ انها ولا شك قد تبعتهُ الى باريز فطار رشد فيليب لهذه الضربة التي وقعت على دماغهِ وطير الرسائل البرقية الى باريز بالسؤال عن ادمون فوردت اليهِ الاجوبة بانهُ قد فارقها منذ بضعة ايام ولا علم لاحد بمقرّهِ . فلما تحقق لهُ الامر اقسم باغلظ الايمان انهُ لا بدّ ان يقتفي اثرهما حيثما ذهبا ويشفي غليل صدرهِ من خصمهِ ثم لم يلبث ان استعدّ للسفر وتزوّد بمبلغٍ من المال وطفق من ذلك الحين يضرب في الارض ناشداً ضالتهُ . واما عمهُ فانهُ اصابهُ مرضٌ فجآئيّ على اثر هذه الصاعقة ولم يمهلهُ بضعة ايام حتى قضى نحبهُ جزآء عسفهِ وعدم تبصرهِ

واما ما كان من امر مرغريت وحبيبها فانها قضت معهُ نحو خمسة اشهر وهما اشبه بإلفي حمام الا ان الدهر شيمتهُ الغدر ودأبهُ تنكيد الحياة فاصاب مرغريت مرضٌ خبيث كان متفشياً في تلك المدينة وفي مسآء احد

الايام اشتدّت عليها وطأة العلة ورأى ادمون ذلك وقد ضعف املهُ في شفآئها فغلبتهُ العبرة وخرج للحال ليستر بكآءهُ عنها وجلس في ظل احدى اشجار الحديقة وهو يلطم وجههُ ويندب حظهُ . ولما خرج اغتنمت مرغريت تلك الفرصة وطلبت واحداً من الخدم وارسلتهُ برقعةٍ الى احد مخازن البلدة فما عتم الخادم ان عاد بعد هنيهةٍ وبيدهِ صندوق صغير فوضعهُ امامها وخرج وبقيت وحدها والصندوق بجانبها . ولما استبطأت زوجها سألت الخدم عنهُ فخرجوا يلتمسونهُ في الحديقة فاذا هو مغشيٌّ عليهِ فايقظوهُ ورجعوا بهِ اليها فدخل وجلس بجانبها وهي قد اعتقل لسانها عن الكلام فجعلت تنظر اليهِ بعينٍ ملؤها الحب والاسى وهو ينظر الى تلك الشمس المتوارية وفؤادهُ يتفتت ومهجتهُ تتقطع . ثم انها جمعت قواها والتفتت اليهِ واشارت الى الصندوق وقالت لهُ قد تركت لك هذا التذكار يا ادمون فلا تفتحهُ الا بعد مواراتي في التراب ثم تزوّدت منهُ النظر الاخير واطبقت اجفانها فتوارت شمس ذلك الحسن وذبلت زهرة ذلك الغصن وسقط ادمون بين يديها مغشيّاً عليهِ وغاب عن الوجود

ولما افاق من غشيتهِ جثا امام ذلك الهيكل الشريف وهو يقبلهُ تارةً وينوح اخرى ويسقي ذلك الغصن الذابل بدموعهِ الى ان حان وقت الدفن فنهض يشيّعها وهو يودّ لو جُعل فؤادهُ مدفناً لها وبعد ما قفل عن قبرها وهو يرى انهُ قد دفن هناك آمالهُ وسرورهُ تذكر ما اوصتهُ بهِ قبل مماتها فطار الى الصندوق وفتحهُ واذا بورقةٍ صغيرة في داخلهِ ففعل حسبما كان مكتوباً عليها وللحال ادرك المراد من ذلك التذكار الثمين وبعد بضع دقائق

اقفلهُ وجعل يقبلهُ ويبلهُ بدموعهِ الى ان حالت الخدم بينهما

ثم انهُ ترك ذلك البيت واخذ بيتاً خارج البلدة وهناك بنى حجرةً خصوصية لذلك الصندوق وجعل يزورهُ ثلاث مرات في اليوم

وفي عشية احد الايام كان رجلٌ يتمشى على الطريق الموصلة الى القصر الذي اتخذهُ ادمون مسكناً لهُ . وكانت سمات الغيظ والاعيآء تلوح على محيا ذلك الرجل وما زال سائراً الى ان بلغ جانب الغرفة التي خصصها ادمون لصندوق مرغريت فارسل نظرهُ من احدى نوافذها فلم يرَ الا شموعاً موقدةً فجلس بازآئها قصد الراحة . ولا بد ان يكون القارئ اللبيب قد ادرك ان ذلك الرجل لم يكن الا فيليب وقد بلغ بهِ المسير الى تلك المدينة وقصد ذلك القصر ماشياً على قدميهِ علهُ يتنسم خبراً عن ضالتهِ . ولم يستقرّ بهِ المقام بجانب الغرفة حتى طرق اذنيهِ صوتٌ انتفض لهُ انتفاض العصفور بللهُ القطر فنهض على قدميهِ وهو يقول هذا صوتها بلا شكٍّ ولا ريب . ثم نظر الى داخل الغرفة فرأى رجلاً نحيلاً قد جلس بازآء صندوقٍ يتأمل فيهِ والدموع تهطل من عينيه فاصغى قليلاً واذا بالصوت الذي طرق مسمعهُ قبلاً قد عاد يتكلم فتأكد لديهِ انهُ صوت مرغريت وان كان مصحوباً بارتعاشٍ يدلّ على ضعف المتكلم . ثم انعم النظر في ذلك الرجل وما كاد يتحقق انهُ هو نفس غريمهِ بل عدوّهِ ادمون حتى وثب الى داخل الغرفة واخرج من جيبهِ مديةً وضرب بها ادمون ثلاثاً في صدرهِ فسقط المسكين الى الارض دون ان يبدي حركةً لان النحول كان قد براهُ وراح شهيد الحب الصحيح والولآء الصادق . واما فيليب فلما رأى غريمهُ

قد اصبح بلا حسٍّ امـام قدميهِ التفت ذات اليمين وذات اليسار ليرى مرغريت فرأى المكان خالياً ولم يقع نظرهُ الا على الصندوق فتقدم اليهِ واخذهُ بين يديهِ وبينما كان يقلّبهُ سمع صوتاً يقول من داخلهِ يا حبيبي ... فذُعر من هذا الصوت وترك الصندوق من يدهِ وقدكاد صوابهُ يطير اذ تأكد لديهِ انهُ صوت مرغريت ولكنهُ لم يرَ لحل ذلك المعمى سبيلاً . وبعد ان ثاب الى صوابهِ عاد فتقدم الى الصندوق وجعل يقلبهُ كالاول فسمع الصوت من الداخل يقول يا حبيبي ادمون احببتك في الحياة وسأحبك في الممات فاذكرني دائماً ولا تنسني واعلم .... وقبل اتمام الكلام خارت قواهُ فسقط الصندوق من يدهِ على الارض فتحطّم . وللحال ادرك سرّ الامر وعلم انهُ كان في الصندوق آلةٌ فونغرافية لها نابض (زنبلك) متى ضغط عليهِ تكلمت الآلة من داخلهِ وقد حصل ذلك اتفاقاً حينما تكلمت في المرة الاولى وعلم ان مرغريت قد ماتت وانها كانت قد تكلمت فيهِ بما كان لهـا من الانفاس في آخر ساعةٍ من حياتها

ولما تبينت لهُ حقيقة الامر ورأى انهُ لم يبقَ لهُ سبيـل الى الخلوة بحبيبتـهِ ثم نظر الى ادمون وهو ملقىً على الارض وتأمل فيما جلب على نفسهِ وعلى ذينك المسكينين من الشقآء والبلآء اظلمت الدنيا في عينيهِ ووقف حائراً مبهوتاً . وبينا هو كذلك اذ دخل احد الخدم فرأى سيدهُ مطروحاً على الارض يختبط بدمهِ وفيليب واقف بجانبهِ فصاح بباقي الخدم فتراكضوا اليهِ فلما رأى ذلك طعن نفسهُ بتلك المدية طعنـةً القتهُ صريعاً بجانب غريمهِ وذهبوا جميعهم ضحايا الحب والغيرة